فلما كان يوم ٢٦ مايو.. فلما كان يوم ٢٦ مايو..

أنيس منصور

التحرير

في البدء كانت مبادرة أمريكية . وبعدها خرجنا من «مأزق» فك الاشتباك الأول باقتراح أمريكي قدمه د. كيسنجر. وفي كل مرة تتعثر المفاوضات. ونختلف على المفردات. فإن أمريكا تفرش الطريق بين الطرفين بالرمل أو بالورد أو بالشوك..

ولذلك كان الرئيس السادات على حق عندما قال: إن أمريكا تملك أكثر أوراق اللعبة. ولا تزال. فهي صديقة الطرفين. وإن كانت أكثر صداقة لإسرائيل. وأقدر على إقناعها. سواء كان الطرف الآخر هو مصر. أو هو كل العرب. أو أوروبا الغربية..

ولذلك فنحن الآن في انتظار «مبادرة أمريكية» جديدة. وبعدها يمكن لمصر استئناف مفاوضات الحكم الذاتي. كما أعلنت توقفها. وسوف تستأنف المفاوضات مع إسرائيل وأمريكا في الأسبوع القادم. أو بعد ذلك بقليل..

* * *

فما الذي حدث قبل ٢٦ مايو؟

وما الذي سوف يحدث حتى الانتخابات الأمريكية هذا العام. والانتخابات الإسرائيلية في العام القادم؟

كان لابد أن يكون هناك تاريخ أو يوم محدد نستعجل وقوعه أو بلوغه. لنعرف ماذا تحقق لنا جميعا من كل ما اتفقنا عليه في قضية الحكم الذاتي والتبدل والمستوطنات على الأرض العربية. ولم نتفق إلا على شيء واحد. هو أن تمضي في الحوار. واختلفت وجهات النظر. واختلفت معاني المفردات التي استخدمت بين جميع الأطراف. وبصفة خاصة كلمة «الأمن» عند إسرائيل..

وأحس المفاوضون أنهم كاللاعبين الذين ارتدوا ملابسهم. ونزلوا إلى الملعب في غاية اللياقة البدنية. وأطلق الحكم صفارته. وفوجيء اللاعبون بأنهم لا يعرفون بالضبط ما اسم اللعبة المطلوب أداؤها.. هل هي كرة القدم أو كرة السلة أو كرة الطاولة؟ أما سبب هذه الحيرة فهو أنهم يلاحظون أن الكرة التي تقفز أمامهم ليست هي كرة القدم دائما. إنما هي مرة صغيرة. ومرة كبيرة. ومرة كرة طاولة. ومرة كرة سلة..

أما انهم جميعا جادون. فلا شك في ذلك.. وأن كل هذه اللعبات لها قواعد ولها أصول. فهذا مؤكد. ولكن الخلاف يجيء دائما عندما تتغير الكرة. فتتغير معها قواعد اللعبة. وتتعالى صيحات المتفرجين. لأنهم لا يفهمون ما الذي يحدث هناك بين اللاعبين والمدربين والحكام الدوليين.. ثم إن المتفرجين يستشعرون السخرية بهم. ويشمون رائحة الاستخفاف بآمال الشعوب في أن تصل من وراء ذلك كله إلى السلام الشامل. وليس إلى السلام مع مصر وحدها. وهو ما رفضته مصر منذ خطبة الرئيس السادات في الكنيست.

وقد أعلنت مصر منذ وقت طويل. أنه عند يوم ٢٦ مايو الماضي. سوف يتولد موقف جديد تماما. وكان المعنى الذي قصدته مصر هو أنا سوف نمضي في المفاوضات إلى أن نصل إلى هذا التاريخ. فإذا لم نوفق فسوف نمضي أيضا. ولكن!

ولكن لابد أن تفعل الأطراف الأخرى شيئا مساعدا . فالدعوة مفتوحة للجميع أن يساهموا بما يقدرون عليه . أى أن الدعوة موجهة لا إلى السعودية وحدها . إنما إلى كل العرب . وإلى مقدمتهم المنظمات الفلسطينية . وأوروبا الغربية . . أى أن المطلوب هو إكمال المسيرة . وليس إعادة النظر فيها . أو نقضها .

لأن المسيرة حتى ٢٦ مايو هى التى وافقت عليها مصر وإسرائيل وأمريكا . ولن تقبل – جميعا – أى اعتداء على ما حققناه . أو أى نقض للمبادىء التى استندنا إليها . .

مثلا : إننا نرفض أية محاولة لنقض القرار ٢٤٢ أو إبطاله . لأنه أساس لاتفاقية السلام . وبداية الطريق الطويل الشاق الذى قطعناه وقطعنا أيضا . . حتى أفلحنا فى أن نحقق معجزة تاريخية . .

أما أمريكا فقد أعلنت أنها سوف تستخدم حق الفيتو إذا طالبت الدول العربية والأوروبية بعرض هذا القرار معدلا أو مبدلا على مجلس الأمن ! . .

ويكفى أن تفعل أمريكا ذلك . لتتوقف كل المحاولات – مهما كانت مخلصة – من أجل أن يكون سلام أو إيهام بذلك . .

وقد دارت مفاوضات الحكم الذاتى متوترة عصبية . وحدثت أثناءها تجاوزات كثيرة . سواء فى بناء المستوطنات . أو الاعتداء على الفلسطينيين . أو محاولات « بهلوانية » لإعلان القدس عاصمة موحدة لإسرائيل . . وفى نفس الوقت زادت الخلافات الحزبية فى الحكومة الإسرائيلية نتيجة لذلك . أو مقدمة لخلافات مقبلة . وكان لابد أن نتوقف . ونظرنا إلى الوراء . كما نظرت زوجة لوط لنرى كل شىء قد تجمد على شكل أعمدة من الملح . ولأننا مؤمنون بأن السلام حركة . وهذه الحركة حوار . وهذا الحوار متعدد الأطراف . فهو شديد الصعوبة .

وعند يوم ٢٦ مايو وقعت أحداث غير متوقعة . مثلا : ما أدلى به سمو الأمير فهد بن عبد العزيز ولى عهد السعودية . فقد عرض الأمير فهد موقف السعودية من القضية الفلسطينية . وقد جاء هذا العرض دليلا على فهم كامل لأعماق القضية . وعلى كل من كان يتوهم أن السعودية غائبة عن القضية الفلسطينية . أن يغير رأيه . وأن يلق بالمسئولية كاملة على السعودية . فهى تعرف جيدا . وهى تدرك تماما صعوبات السلام . .

ولم يكد الأمير فهد يعرض القضية التى سجلتها السيدة كاترين جراهام . أقوى امرأة فى أمريكا . حتى عاد بسرعة فعدل عن رأيه . ومن المؤكد أن الذى قاله فى اليوم الأول مسجل على شريط بعلمه . وعلى مسمع من ستة من مساعدى السيدة كاترين جراهام صاحبة جريدة « واشنطون بوست » .

ولم يكد الأمير فهد يدلى بهذا التصريح . حتى امتلأت السماء العربية بشائعات اختفت علم الواقع المثير . فقالوا : إن الرئيس السادات قد سافر قبل ذلك إلى السعودية . وإن هذا السفر قد جاء عندما أعلن الرئيس السادات أنه يتفرغ لقراءة الخطاب الذى ألقاه يوم ١٤ مايو . وقيل أيضا : إن توقف مفاوضات الحكم الذاتى جاء بسبب تلك الزيارة . .

أى أن زيارة الرئيس السادات للسعودية كانت سببا فى وقف المفاوضات . وسببا فى تصريحات الأمير فهد . .

وعندما لم يظهر الرئيس السادات فى حفلة العيد المئوى لكلية الحقوق . قيل : بل سافر الرئيس السادات إلى السعودية . .

مع أن عدم ظهور الرئيس فى هذه الحفلة كان بسبب أنه فوجىء باسم محمد زكى عبد المتعال . ود . وحيد رأفت . الأول أدانته الثورة . والثانى تهجم على الثورة . واتهمها بأنها انقلاب . وقد فوجىء الرئيس بهذه الأسماء . لأنها عرضت على مكتب الرئيس فى رئاسة الجمهورية فى فبراير الماضى . وجاءت موافقة السيد حسن كامل مدير ديوان الرياسة روتينية . مع أن تنبيها قد وجه إلى د . صوفى أبو طالب منذ شهر مضى بشأن بعض هذه الأسماء . .

وإذا كان الرئيس لم يحضر هذا الاحتفال فقد أضاف إلى الذين يستحقون التكريم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى . الذى تراجع وحكم فى قضية مصر . كما لم يفعل أى مؤرخ من قبل أو من بعد !

هاجم صاحب بيض الوزير المقبل فايسمان كما لم يفعل من قبل واستغرق الهجوم مائة دقيقة فى قصاصة بالغة

كيسنجر هو الذى قدم الإيضاح الأمريكى .

رئيس فيتنام الذى يذهب وحده عن مصالح فرنسا .

ولكن هناك إصرارا من الرأى العربى العام على وجود صلة بين مصر والسعودية . أو على ضرورة أن تكون هناك صلة . أو الرغبة فى ذلك . .

وكما كان إعلان الأمير فهد مفاجئا . كان انسحابه وتنصله من كل ما قال مفاجئا أيضا . وجاء اعتذاره عودة سريعة إلى مواقفه السابقة من الخوف من سوريا والعراق والمنظمات الفلسطينية . وإن كانت الصحف الأمريكية التى لم تبرز اعتذاره عن كل ما قاله . تؤكد أن هناك تنسيقا فى المواقف بينه وبين مصر أو بين السعودية وأمريكا ؟ !

وكان رد فعل السيد مناحم بيجين أسرع وأبرع . فقد دعا الأمير فهد إلى أن يذهب إلى الكنيست ويقول ما يشاء . .

وكنا نتمنى للأمير فهد أن يفعل ذلك . .

فقد جربنا نحن المصريين ماذا حدث عندما ذهب الرئيس السادات إلى الكنيست . فاختصر فى خطوة واحدة عشرات السنين . فقد كان من الممكن أن تظل حروبنا مع إسرائيل مثل الحروب الصليبية التى دامت مئات السنين ! . .

ونحن لا نضيف جديدا إذا قلنا إنه لا حل لهذه القضية دون حوار مع إسرائيل . ما دامت إسرائيل هى الطرف . فلن تحل هذه القضية بالرسائل . ولا بالكلمات التليفونية . ولا بالكاسيتات . ولا حتى بالقاموس . لابد من الجلوس معا للاختلاف أو للاتفاق . إلى غير نهاية أو إلى أية نهاية . وتكون هذه النهاية بداية . تماما كما توقفنا عند ٢٦ مايو . لنبدأ من جديد . .

وبعد ٢٦ مايو استقال وزير الدفاع الإسرائيلى السيد عيزر فايتسمان . وهو شخصية عاقلة متوازنة . ومن المؤكد أنه يريد السلام . وأنه يخشى على السلام من التشدد الذى يسد الطرق إليه . وهو أولا وأخيرا إسرائيلى وطنى . لا يختلف عن أحد من الذين عارضوه فى الحكومة أو فى الحزب أو فى الأحزاب الأخرى . .

وإذا قلنا إن السيد فايتسمان صديق للرئيس السادات . مثل السيد مناحم بيجين تماما . فإننا نقصد أننا لا نريد أن تتدخل فى شئون إسرائيل . كما أننا لا نريدها أن تتدخل فى شئوننا أيضا . وما سوف يحدث فى الحكومة الإسرائيلية أو فى الكنيست أو الأحزاب . فنحن نرقبه ونرصده . وسوف نفاوض أى أحد من أى موقع . .

وقد حاول السيد مناحم بيجين أن يلقى بالطين المصرى على وجه السيد فايتسمان . فيتهمه بأنه . حريص على أن يبين لدولة أجنبية معينة أنه أكثر الناس قدرة على تحقيق السلام . . حتى هذا لا شأن لنا به . ولا نجد مدعاة للفخر أن يكون السيد فايتسمان يريد أن يبين لمصر أو لأمريكا أنه هو الرجل المناسب فى الوقت المناسب . .

ولقد شن السيد بيجين هجوماً عنيفاً على السيد فايتسمان . وقال انه شاهد برنامجاً فى التليفزيون الإسرائيلى لفايتسمان . وقد سأله المذيع . ألا ترى أن لسانك هو أعدى أعدائك ؟ فأجاب فايتسمان بالإيجاب . قال بيجين معلقاً على ذلك : الآن يستطيع السيد فايتسمان أن يجعل لسانه رهينة ! ! . . إلخ . .

ولا نرى أن فيما قاله السيد مناحم بيجين شيئا غير مألوف . . فى مجلس الوزراء الإسرائيلى مناقشات أكثر حدة . وخناقات أكثر عنفا . . وتطير ألفاظ وعبارات يخجل منها قائلوها – هذا ما نسمعه منهم جميعا ! .

❧❧❧

وعندما تكون هذه الجملة بين يديك يكون الرئيس السادات قد طلب من السفير الإسرائيلى أن يأتى لمصر بالنص الكامل للخبر الذى أذيع مرة واحدة من راديو تل أبيب . . ثم حجبوه عن التليفزيون . هذا الخبر قد تسرب من لجنة الشئون الخارجية بالكنيست . فقد أعلن السيد مناحم بيجين همساً وسراً : أن إسرائيل سوف تمتنع عن الانسحاب من بقية سيناء إذا لم توافق مصر على أن يكون هناك إشراف دولى على القوات المصرية والإسرائيلية بعد الانسحاب . عند رفح وشرم الشيخ . .

وقد ناقش السيد موشى ديان هذه القضية مع الفريق أول كمال حسن على فى العام الماضى . ولم يتفق الاثنان

لما هى أسباب إذاعة هذا النبأ ؟ ما الذى يريده رئيس وزراء إسرائيل ؟ أهى قضية جديدة . أهى عقبة أم هى عقوبة . هل يريد رئيس وزراء إسرائيل أن يعطى انطباعاً للرأى العام الإسرائيلى بان السيد فايتسمان كان متهاوناً فى أمن إسرائيل . وأن الوقت قد حان لإصلاح أخطائه الفادحة ؟

اننا لا نعرف الدافع الحقيق وراء هذا « البالون » الذى أطلقه رئيس وزراء إسرائيل ثم عاد فسحبه بسرعة . ولكن المهم أنه قد أطلقه . وانا رأيناه طائعاً وهابطاً . ونريد أن نفهم حقيقة ما حدث . . أن نفهم معنى هذا البالون وبالونات أخرى عديدة انطلقت وتفجرت فى الأسابيع الماضية . .

❧❧❧

ثمن المفروض أو المطلوب بعد ذلك أن تتقدم الدول الأوروبية . وتساهم فى أن يتحقق السلام . . ومواقف الدول الأوروبية كلها معروفة . فهى جميعا

لا نختلف على القرار ٢٤٢ . وإن كانت نرى أنه يجب أن تتغير الإشارة إلى الشعب الفلسطيني على أنه من اللاجئين . وهي نحقة في ذلك . ولكننا نحن أيضا نحقون،فقد تجاوزنا هذا القرار باتفاقيات السلام . فهذه الاتفاقيات تتحدث عن حق الشعب الفلسطيني في أن يحكم نفسه . وأن يكون له رأي وقرار . . هو وحده لا شريك له . بل إننا أعطنا أننا لا نتحدث باسمه . إنما فقط . عن طريق المفاوضة مع إسرائيل وأمريكا . نخلف عنه ويلات الطريق إلى السلام . وبعد ذلك عليه أن يتسلم القيادة والراية إلى الهدف الذي يريده . وعلى الدول العربية أو الأوروبية أن تعاونه في ذلك . أي علينا أن نكمل الطريق الذي بدأناه . .

وقد استراح السيد حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية في لقاءاته في واشنطون ولندن وبون . فقد وجد أن وجهة النظر المصرية واضحة تماما . وقد أدهش السيد حسني مبارك المسئولين جميعا بسعة أفقه . وإلمامه الدقيق بكل التفاصيل . وإجاباته الحاضرة لكل التساؤلات . .

وعلى الرغم من الخلافات الشديدة بين الدول العربية . فإن الموقف المصري لا خلاف عليه بينهم . هناك خلافات بين أمريكا وفرنسا . ففرنسا قد اتخذت لها موقفا منفردا . إنها تخشى على مصالحها العربية والسوفيتية أيضا . ولذلك فالرئيس الفرنسي ديستان يشبه « ذئب المرارى » الذي قرر أن يذهب إلى فريسته بنفسه . فإذا عاد إلى الشعب الفرنسي كانت على لسانه أقدس الكلمات في العالم : الحرية . .

أي أنه يريد أن يكون حرا . بعيدا عن أمريكا في خطواته . .

ولما التقى وزيرا خارجية أمريكا وفرنسا . أمسك الوزير السيد بوسيه ورقة . وقرأ للوزير الأمريكي السيد ماسكي كل التجاوزات الأمريكية التي تجاهلت فيها فرنسا . ولم يجد الوزير الأمريكي ما يقوله . .

ولكن السيد ماسكي أعلن في الأسبوع الماضي لكل وزراء خارجية الدول الأوروبية : أن أمريكا لا تعترض على أي نشاط أوروبي إلى جانب العرب . ما دام لا يؤدي إلى نقض اتفاقيات كامب دافيد . .

أي أن أمريكا لن تساعد أوروبا في مهمتها إذا سارت في اتجاه معاكس لما تم الاتفاق عليه مع مصر وإسرائيل . وقد يكون هذا القرار الأمريكي استفزازيا . ولكنه ليس كذلك . إنما هو إنذار مبكر لما سوف تفعله الدول الأوروبية في ١٢ يونيو القادم في مدينة البندقية . ويصبح هذا الإنذار خطيرا إذا عرفنا أنه يعبر أمريكا لا حل للقضية الفلسطينية لا في الأمم المتحدة ولا خارجها . وهذا الإنذار ليس للدول الأوروبية ولكن للدول العربية . حتى لا تخدعها العبارات والبطولات الفرنسية أو الأوروبية — ويجب أن نتذكر أن فرنسا هي الأخرى مقبلة على انتخابات عامة . وسوف تواجه صعقة يهودية معادية لأول مرة ! .

وليس الصالح العام للدول الأوروبية في الشرق الأوسط . فإنها سوف تجاهد من أجل أن تتدخل أطراف جديدة في حل أزمة الشرق الأوسط . صحيح أن الدول الأوروبية لم تتفق فيما بينها على تصدير واستيراد الأبقار والسيد . إلا أنها لا تختلف على خطورة النفوذ الغربي والتأثير العربية . ولا تختلف أيضا على خطورة الدور الأمريكي . رغم حجر الإدارة الأمريكية عن حسم القضايا الدولية . .

ولذلك فإن أمريكا تريد إرضاء العرب . حتى لا تنفرد أوروبا العربية بالعالم كله . أو بالتجارة . أو حتى لا تعرقل موقف موقفي عرفي جديد . .

أو لعل أمريكا تريد أن يكون للدول الغربية دور إنقاذ . وهي بذلك تبطل الدور السوفيتي . .

أو أن أمريكا تريد أن « تحتوي » الدول العربية . ابتداء من السعودية . وبذلك يتدعم موقفها . ثم لا تتدخل في « مواجهة » مع أوروبا الغربية . ومن المعروف أن في وزارة الخارجية الأمريكية اتجاها جديدا بهذا المعنى ! . . واجتهادات أخرى كثيرة . .

❧❧❧

فما الذي يمكن أن يتحقق في مفاوضات الحكم الذاتي ؟ . إننا قد استبعدنا مثل هذه التساؤلات . لأن معنى هذا السؤال : أن المفاوضات قد أصبح لها معنى جديد . يختلف عن معناها السابق . والحقيقة أن المفاوضات القديمة والجديدة واحدة . لأن معناها أن نتفاوض لنرى أوضح . ونسمع أعمق . ولو ظللنا نتناقش في جدوى المفاوضات . ماتقدمنا في تحقيق شيء . وقد مضت عشرات السنوات ونحن لا نجرؤ على مثل هذا السؤال . . فقد رفضنا مقدما كل حوار مع إسرائيل . أما الآن فليس الحوار موضوعا للمناقشة . إنه ضرورة وبديهية . .

وحتى إذا لم نفلح في أن نحقق شيئا بارزا . فهذا تحد جديد للأطراف الأخرى . لعلها معا تحقق ماعجزنا نحن عن تحقيقه . ونحن لا ننكر قوة الدول الغربية وعبقريتها . ولكن لها عظيم الاحترام . ولا نستبعد أن تحقق ما عجزنا عن الوصول إليه . من يدري ؟ .

ولذلك فالدعوة مفتوحة . والباب واسع . وعليه لافتة صغيرة لا تراها العين مكتوب فوقها : المفاوضات ! .

❧❧❧

ومن المناسب أن نتفلسف هنا . لأن المواقف العربية والأوروبية فلسفية ميتافيزيقية شاعرية حماسية غامضة . فوق قبة كنيسة القديس بطرس بروما . حاول الفنان الكبير ميكلو نجلو أن يصور لنا كيف خلق الله العالم . . فرسم صورة الله — أستغفر الله — وقد مد ذراعه إلى السحب . أو إلى المادة الأولية لكل شيء . . ومن أصبعه — سبحانه وتعالى — خرجت كل الأشكال والكائنات . . أي خرجت المبادىء والقوانين التي تربط الأشياء والأحياء . . وقد حاول عدد من رجال الدين أن يعرفوا من هو صاحب هذه الوجه الذي اختاره الفنان ليكون قريبا من وجه الله . . ولم يجدوا حلا . . وما كان ينبغي أن يفكروا في ذلك . . فليست لله صورة وليس كمثله شيء .

إنما أوضح وأروع ما في الصورة أن إصبعا واحدة قد امتدت فلامست المواد الأولية . . أي لابد من لمسة الإصبع . . أو لمسة اليد . . أو التقارب بالأيدي والأعين والصوت والحوار لتكون الطبيعة . . أي ليكون ماهو طبيعي بين الناس . .

وقد بددنا من عمر الأمة العربية عشرات السنين ونحن نرفض أن نمد أيدينا إلى اليهود . . أو نلمسهم . . فوق كل شيء على ما هو عليه . .

وأسوأ . ولكن يوم تلاقت الأصابع اختلت الأشياء أشكالها وأحجامها وأوزانها . . واكتفينا وأخذنا مالنا . . ونحن نسعى إلى استرداد المزيد مما عندهم . وهو حق لنا . مثل دولة فلسطينية للشعب الفلسطيني . باختياره وقراره وحريته ! . . □